إنّه هو.. السيد نصرالله

طلال سلمان



(*) نشرت هذه المقالة (الإفتتاحية) بتـاريخ الخـامس من أيلـول/سـبتمبر 2006، في جريدة "السفير".

وحين انفتح الباب واندفعنا نحو السيد معانقين باللهفة، لمحنا كمثل الوميض شيئاً من الحزن في عينيه الذي سرعان ما جبَّه، مـع أسـئلة الاطمئنـان عن الجميـع، إحساسـه المرهف بوطأة المسؤولية الشاملة، وحضوره الذهني الباهر الذي يغريك بـأن تطـرح كل ما يقلق أو يحرج، فلا شيء عند السيد يخفيه أو يخاف التصريح بـه. إنـه هـو هـو، السيد حسن نصرالله، الذي صار مَعْلَماً من معـالم دنيانـا وأحـد الرمـوز المضـيئة في الأفق المعتم لهذه المرحلة من زماننا.. لكن ذلك الحزن في عينيه، ظل يـرف علينـا، ثم صار يتكاثف مع التوغـل في الحـديث عن مجـاميع الشـهداء، في مجـازر الأطفـال خصوصاً، ثم عن حجم التدمير الإسرائيلي المنهجي الهائل لبيوت الناس البسطاء في ضواحي بيروت الجنوبية، كمـا في المـدن والبلـدات والقـرى والدسـاكر في الجنـوب والبقـاع وبعض الشـمال. شـعوره بـأن بعض القيـادات قـد خـذل وطنـه، ومن ثم المقاومـة، في سـاعة الخطـر، يُثقـل عليـه ويزيـد من تخوّفـه على لبنـان ونظامـه الطوائفي الذي قـد تشـفع لـه تلـك الغلالـة من الديموقراطيـة الـتي تسـمح بتعـايش المجاهد والمساند والمحايد والمعترض والمخاصم جنباً إلى جنب، بلا إشكالات، إلا ما يدبّره المتعيّشون من الفتنة أما مع حـديث المواجهـات وبطـولات المجاهـدين الـذين صمدوا لثلاثة وثلاثين يوماً على الحد تماماً، وكانوا يطلعـون على جنـد العـدو من كـل فج عميق فيتصيّدون دباباته وآلياته، ويرفضون الانسحاب أو الانكفاء إلى الخلف، فقد كان وجه الأمين العام لحزب الله يستعيد إشراقته ويلتمع في عينيه فـرح غـامر: لقـد تجاوزوا أنفسهم فصنعوا معجزة النصر. *** قلنـا للسـيد حسـن نصـرالله إننـا نحمـل هواجس الناس على شكل أسئلة عن الغد: عن مستقبل المقاومة، عن هـذه العلاقـة المأزومة بين السنة والشيعة في الـداخل بينمـا صـار الحـزب في نظـر أهـل السـنة، العرب أساساً وسائر المسلمين، رمـزاً للجهـاد وحامـل رايـة النصـر.. ثم عن الحـزب والشيعة، ممّن لا يرون رأيه ولا يقبلون منهجه. وسنسأل أيضـاً عن علاقـاتكم العربيـة التي تبدّت، مع احتدام المواجهات، كأنها قد تهاوت، بل انقلب الود فيهـا إلى مسـاءلة بلغت حدود الاتهام بالمغامرة. هزّ السيد رأسه موافقاً فأضفنا: وسنسأل عن سلاحكم ومسـتقبله، وعن علاقـاتكم بـالجيش، بعـد كـل الـذي كـان، ثم عن علاقتكم بقـوات اليونيفيـل. ولا بـد من التوقـف أخـيراً أمـام علاقـاتكم مـع مختلـف القـوى السياسـية الأساسية في البلاد، لا سيما مع زملائكم إلى طاولة الحوار. كان السيد حاضر الذهن، كعادته، وإن كان واضحاً أنه يبذل جهدا، في لحظات معينة، لتخطي حاجز المرارة، أو الشعور بالخذلان، لا سيما عند من ينكرون النصر العظيم الذي تحقق، وبكلفـة هائلـة لكنهـا لا يمكن أن تحجبـه بتأثيراتـه الخطـيرة على الكيـان الإسـرائيلي أولاً، ثم على صورة الغد العربي. وكان واضحاً أن كثيراً من الأسئلة التي حملناها لم تباغت السـيد، بل هي كانت موضع نقاش أولي لدى قيادة حـزب اللـه، وهـو نقـاش سيُسـتكمل في مستقبل قريب. *** نعم، السيد قَلِق. وهو لا يخفي قلقه على الوضع في لبنـان، بـل

يحدد مصادره وأسبابه. نعم، السيد خائف أن يصبح النصر جريمة، وأن يصبح بطلها المقاوم، حزب الله، موضع حصار يشترك في ضربه من حوله أصدقاء قدامى مع خصوم دائمين، بما يخدم مصالح من يسعى لترسيخ هيمنة أجنبية على لبنان. نعم، السيد غير مرتاح إلى اهتزاز كثير من التحالفات السابقة، نتيجة ضغوط دولية، أو نكايات محلية، أو تخوّف من حجم الحزب وصورته التي تداخلت في بعض جوانبها مع الأسطورة. نعم، السيد يعيش مرارة مفارقة غير مسبوقة: المنتصِر محاصَر بأعباء نصره، وهي ثقيلة، تطارده إضافة إلى إسرائيل مخابرات حلفاء إسرائيل جميعاً (وبينهم عرب)، في حين أن كل الذين يتمنون انتصار إسرائيل، وينحازون ضد شعبهم، يسرحون ويمرحون آمنين، ويطلقون التصريحات الكيدية ويحقّرون النصر ويغذون الحساسيات المذهبية والطائفية. ولقد عشنا معه هذه المرارة ونحن ننتقل إلى مقابلته في ما يشبه الخطة البوليسية. وعدنا من لدنه بالطريقة نفسها، بينما الآخرون جميعاً يعيشون في بيوتهم، آمنين على أنفسهم وعائلاتهم، يحصدون مكاسب المرحلة التي صنعتها بطولات المقاومين وتضحيات مجمل الشعب في لبنان، كل بحسب موقعه في عين عدوه الإسرائيلي. *** السيد بخير. لكن شعوره بأن بعض القيادات قد خذل وطنه، ومن ثم المقاومة، في ساعة الخطر، يُثقل عليه ويزيد من تخوّفه على لبنان ونظامه الطوائفي الذي قد تشفع له تلك الغلالة من الديموقراطية التي تسمح بتعايش المجاهد والمساند والمحايد والمعترض والمخاصم جنباً إلى جنب، بلا إشكالات، إلا ما يدبّره المتعيّشون من الفتنة، وهم هم الذين يحاولون الآن طمس النصر أو تقزيمه مع وعيهم بأن ذلك مستحيل، وبأن المستفيد سيكون العدو الإسرائيلي. وعن هذا العدو تحدث السيد حسن نصرالله حديث العارف والمتابع الدقيق والمهتم بكل التفاصيل حتى لا يخطئ التقدير ولا يتوه عن الطريق التي تأخذ إلى النصر.. وهو يعرفها، كما أكدت التجارب العظيمة، حق المعرفة.